حديقة المقتطف

الآخر !

للشاعر الالماني النمسوي آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

نقلها : ابراك حموش

شيكاغو

للشاعر كارل ساندبرغ

نقلها : زهدي الداجي الفاروقي

آرثر شنتزلر

كاتب نمسوي من أشهر كتاب العصر الحديث ، ولد سنة ١٨٦٢ وتوفي في سنة ١٩٣٣

الآخر !

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

وحدي !... وحدي !...

انا جالس الى منضدتي ، والمصابيح مشعلة ، الباب المؤدي الى غرفتها مفتوح ، نظري يسبح في ظلام الغرفة ... الاضواء المشعشعة المنبعثة من الدور المقابلة تنعكس على زجاج نافذتي ... يا الله لقد تبدّل كل شيء !... كانت تسبل بعناية ستائر مكتبي ، وتدنيها بعضها من بعض لتمنع عن تقاربنا ، في غيرة قوية ، ضوضاء الشارع والاضواء المجاورة ....

الساعات تمر ، طفت في غرفتي ، ثم أخذت أطوف في غرفتها ، تمددت على كرسيها الطويل ، تمددت عليه بدون حراك ، وطفقت أصوّب نظري نحو النافذة التي تكشف لي عن عالم أصبح بعدها ولا شأن له ... ثم وقفت الى منضدتها ، وأخذت بيدي اقلامها الحبرية والرصاصية التي لما تزل تعبق بأريج اصابعها ... انحنيت بعد ذلك على موقد مدفأتها المطفأ ، وشرعت احرّك الاوراق والفحم ، فكأن كل ذلك ، وقد استحال الى رماد ، يصر صريراً حزيناً ، عند ملامسة المحرك الفظ

***

اذهب كل صباح الى المقبرة : الخريف المتأخر تبره شمس وقحة ، باردة... لا أكاد اشاهد الجدار الابيض عن بعد ، حتى اشعر بحرقة في عيني ... اطوف بين صفوف الاضرحة اراقب الذين يصلون ويبكون ، اصبحت اعرف بعضهم ، وما يدهشني هذه الطريقة المتشابهة التي تكاد تكون هي هي عند الجميع ، وتلك الحركات التي يكررها كل منهم ، في كل مرة ، بدقة فائقة ... اصبحت اعرف هذه

الفادة التي تتهالك على اقدام ضريح يعلوه صليب ، تجهش في البكاء ، وتذرف شتيت الدموع ، وتضع ذات الازاهير البنفسج على الارض امامها ، ثم تنهض وقد راق لون محياها نوعاً ما ، وتشرع تبتعد عن المقبرة بخطوات سريعة وثابتة . هي تبكي شاباً في الرابعة والعشرين ، خطيبها بدون شك ... كيف تقوى على النهوض ؟ ومن أي ينبوع تستقي ذلك العزاء الذي يلمع في نظراتها كلما عمدت الى النهوض ؟ ... اريد أن اتبعها ، وان اصرخ في وجهها : « لا عزاء ايتها المخلوقة المسكينة ! » ولكن ... وأنا ؟ ... انا وقد اعتدت أن آتي كل يوم الى هنا ... عمَّ ابحث اذن ؟

اولئك النسوة ذوات البراقع الحريرية ، والقفازات السود ، يضايقنني كثيراً ... لاشك أني مثلهن ، شاحب اللون ، منتفخ الاجفان ، ولكني وأنا تلّ بثوب سام منقطع النظير لا أتحمل هذا التأثر الذي يرتسم على وجوه الآخرين ، فانظر في شيء من الحسد الى ذلك الانسان الذي تهزه ذات الرجفة التي تهزني

والآن ، فان ثائرتي تثور لمجرد الافتكار بأن جميع هؤلاء الذين يتيهون بين الاضرحة يلذعهم نفس الالم الذي يلذعني ، ذلك الالم الخالد الذي نعجز عن التعبير عنه ! أوه ! يا للرحمة ! جميعهم يتألمون ألمي والايام تمضي فتجلب افكاراً جديدة ، وتبعث آمالاً جديدة ... وتعيد بصورة اكيدة ربيعاً ينشر خضرته الصفيقة امام انظارنا ... سيعود الهواء فاتراً ... وستعود الازهار لتعطر الجو بأريجها .. وستعود النساء تبتسم كما كانت تبتسم من قبل ... وسنخدع عن انفسنا مرة أخرى .. سنخدع عن انفسنا وننسى حزننا !...

***

أقف دائماً على بعد بضع خطوات من التجويف الذي يواريها ، عندما يوضع الحجر ، استطيع ان اتكىء على درجات الضريح الباردة ، واستطيع أن انحني ، وأن أجثو على قبرها ... لا أجرؤ الآن على الاقتراب خشية أن تنوء بعض الحصوات على لمسها ... ومع ذلك تنتابني احياناً رغبة لا تقاوم للارتماء على ذلك التجعيد ونبشه بأصابعي ... اني لا اعرف الصبر ، هو ألم وحشي ، تصطك له أسناني ... أصبحت أبغض كل شيء ، وجميع الناس ، وعلى الاخص اولئك الذين يتألمون مثلي ...

جميع هؤلاء الرجال ، والنساء ، والاطفال ، الذين أصادفهم كل يوم ، يثيرون حنقي . . . أتمنى لو أستطيع ان أطردهم . . . وأي حزن ينتابني ، بصورة خاصة ، عندما أفكر ان احدهم جاء البارحة للمرّة الاخيرة ، اذ أحسّ بسكون المرء ألمه ولاحظ انهُ يخف من يوم لآخر ، وهو يعود من المقبرة . . . انهُ عاد لا يتألم . . . لقد استيقظ ذات صباح باسماً . . . آه . . . كم أبغض اولئك الذين يستعيدون ابتسامهم !

هل يأتي يوم أستعيد فيه انا أيضاً ابتسامي ؟ . . . وأنى ؟ . . . لا تكاد ذكرى شبابي تفارقني : اني لأرى نفسي أجتاز الغابة الى جانب محبوبتي . . . كان عليَّ ان أكون سعيداً جدّاً ، وقد كنت سعيداً جدّاً . . . ولكن هنالك بعض لحظات تلتهم في أحشائها كل شيء ، تلتهم المستقبل والماضي لانها الخلود نفسه ! لم أكن قط من اولئك المتنزهين الهادئين الذين يمرون بالطريق الكبيرة ، ويتوغلون في الحقول ، ويتمددون بلطف في ظلال الغابة ليتذوقوا النسمات البليلة التي يتنشم بها صباح منوَّر . . . كلاّ ! لم أكن من هؤلاء ، وانما كنت أتسلق الاشجار ، لاستكشف آفاقاً أوسع ، وكنت أشاهد الطريق اذ ذاك تلتف في السهول البعيدة حيث يحتضر الربيع . . . .

في هذه الغرفة ، وازاء هذه النافذة ذاتها ، التصقت بي ذات يوم امرأة وأخذت تعانقني وتقبلني . . . رجفة باردة هزتني . . . الدقائق ، الساعات ، الايام السنون ، كل ذلك أخذ يهرب ، مسرعاً ، مسرعاً . . . انتهى عهدنا . . . دبَّ الينا الهرم . . . أدركنا النهاية . . . هكذا كنت أدنّس حبنا ، باعترافي بقابليته للزوال ، وهكذا أدنّس ألمي الآن لتفكيري بأنهُ سيأتي يوم أبتسم فيه !

من هو هذا الرجل ذو الشعر الشقر والعيون الحزينة ؟ من يبكي ؟ الضريح الذي يزوره كل يوم كائن على بعد بضع خطوات من ضريح امرأتي . . . لقد استوقف نظري هذا الرجل لاني لم أستطع ان أبغض كالآخرين . . . هو يأتي قبلي ويبقى حتى بعد ذهابي . . . ومن المحتمل انني كنت لا أشعر بوجوده لو لم أشعر ذات يوم بنظراته ترمقني في كثير من الحنان أزعجني . . . تفرست في وجهه ، فحوَّلهُ عني شيئاً فشيئاً ، ثم أخذ يبتعد وهو يحاذي الجدار . . . لا بدَّ اني عرفتهُ قبل اليوم . . . ان وجههُ ليس غريباً عني ! . . .

أين رأيته اذن ؟ . . . في سفر ؟ . . . في مسرح من المسارح او شارع من الشوارع ؟ انه يشعر بحزني بصورة غريزية . . . وربما كان عنه حزن كحزني . . . لعل هذا المرض يفسر نظراته ، التي لن أنساها قط : انه شاب وجبان !

***

ها قد جلست مرة أخرى الى منضدتي ، أزهار ذابلة تحيط برسم المرأة التي كانت قرينتي ، بل سعادتي ، بل دنياي ! . . . بدأت افهم الاشياء وأقدرها . . . الايام التي عشتها أخيراً غشت على عقلي . . . أخيراً وجدت نفسي . . .

للمرة الاولى منذ شهر . عزمت على ان أشغل نفسي ، ان أفتح مكتبتي ، ان أطالع ، ان انظر في بعض الاوراق ، ان افكر . . . .

لم افعل شيئاً من ذلك . . . عدت الى المقبرة . . . كان الليل قد شرع ينشر اجنحته السود . . . ليس في المقبرة احد . . . للمرة الاولى جثوت على ضريحها وطفقت أقبل الارض التي حنت عليها فوارتها تحتها . . . ثم اخذت ابكي ؛ ام بكيت . . . لا صوت . . . لا نأمة . . . صمت رهيب . . . هواء ساكن ، برد . . . نهضت التمس الخروج بين صفوف الاضرحة من جهة الكنيسة . . . لا احد . . . كان القمر يسكب ضوءه على صليب ، وعلى الاحجار ، بصورة لا يمكن ان يفوتني معها وجود شخص ما . . . فلما هممت بالذهاب صادفت امرأة ، ملتحفة في نقاب الحزن ، وفي يدها منديل . . . اني اعرف النساء . . . كانت الطريق المرينة المؤدية الى المدينة بيضاء تحت اشعة القمر ، وكنت اسمع وقع خطواتي ، لم يكن هنالك من يتبعني ؟ وهكذا بلغت منفرداً اطراف المدينة حيث استقبلتني بيوت الضواحي والفنادق ، وترددت في اذني اصداء الجلبة والضوضاء . . .

اشعر بتحسن حالي . . . الآن وقد عدت احس رغبة ملحة كنت قد نسيتها منذ زمن طويل ، احس رغبة قوية تفتح نوافذي ، لاسمع جلبة الشوارع ، لاسمع اصواتاً بشرية . . . ولكن الليل هرم وخرس . . . تكاد اصابعي تجمد من البرد وانا اكتب ، والضوء يضطرب رغم سكون الهواء . . . .

كنت مستنداً الى جدار المقبرة ، وكانت صفصافة ضخمة تحجبني عنه . . .

بكرت كثيراً لاكون الاول ، وصلت وفي غرفة الحفار مصباح يضيء . . . جاء بعدي

كثيرون ، لساء على الاخص ... وفجأة ... هو ! ... اقترب بهدوء من المكان المعتاد ، اقترب بهدوء بيديه الواسعتين الحزينتين ، ثم جثا على اقدامه . . بذلت قصارى جهدي لاراه جيداً ... فرأيته يجثو على ضريح امرأتي !!!

انقطعت عن كل حركة ... اخذت انفاسي تتردد لاهثة متقطعة ... تشنجت اصابعي وهي تشدّ على اغصان الصفصافة ... مرت دقائق ... لم يكن يصلي ... لم يكن يبكي ... واخيراً نهض وشرع يطوف بدون وجهة معينة ، كما كان من عادته ان يفعل ... فاقتربت من الضريح ، ووقفت على بعد منه ، مستنداً الى حاجز حديدي يكتنف ضريحاً آخر ، واذا به يعود من ناحيتي وينظر اليَّ بهدوء ... ويستأنف سيره ... ويعبر ... اردت ان اسأله ، ولكني لم افعل ... شيّعته زمناً طويلاً بأنظاري ، الى ان اختفى وراء الكنيسة !

لا اعرف بماذا كنت اشعر ، ولا اعرف بماذا اشعر الآن ! ... ولكن سيأتي يوم ... ربما كان غداً ، اراه فيه ، واسأله ، واعرف كل شيء !

* * *

آه يا لها من ليلة ! لا أستطيع ان أرقد ! لم تبلغ الساعة الواحدة . . . فلماذا لا اعود الى المقبرة ؟ ... ماذا استطيع ان افعل هنا ؟ . . . هيا بضع ساعات صبر ، بضع ساعات فقط ، وجنون يعرف له حداً . . . يتضح كل شيء ولكن الى ان يتضح ؟ . . . صبراً ! . . . بضع ساعات وتنقضي !

* * *

أجل على ضريح إمرأتي ! . . . هنالك رأيته مرة ثانية ! ! ! كنت على بعد عشر خطوات منه ، فماذا لم انقض عليه ؟ ولماذا لم أقطع عليه الطريق ؟ فشدة شاهدته يبتعد ؟ أليس من حقي ان أسأله عن اسمه ؟ ومن أستطيع ان استفهم اذا لم استفهم منه ؟

حين أراد تخطي الباب تبعته ، ولكن يظهر انه أحس بي ، أجل لست مخطئاً لقد أحس بي ، ولذلك حثّ خطاه مسرعاً ، وأنا بدوري حثثت خطاي ، حتى اذا بلغت الباب ضاع عن عيني لحظة ، ثم ابصرته يمتطي سيارة ، اندفعت تعدو به مسرعة . . . لم تكن هناك سيارة أخرى ، فطاردته راجلا ، ولكنه لم يلبث ان ابتعد عني كثيراً . . . مدة طويلة ، طويلة جداً ، وقفت أشيّعه بنظراتي كانت

الطريق مستقيمة ، فاْزلت أراقبهُ عن بعد حتى اختفت السيارة عن بصري ، فلبثت في ذلك المكان كما أنا الآن لا أمكث أمام هذه الورقة في حالة قريبة من الجنون ! من هو هذا الرجل ؟ الذي يتجرأ على ان يجثو على ضريح امرأتي ؟ من يكون لها ؟ كيف أعرف ذلك ؟ كيف أراه ثانية ؟ . . . آه ! ان ماضيّ بأسره ينفكك ! إن ماضيّ بأجمعه تعبث به يد التشويه ! هل انا مجنون ؟ . . . أمن الممكن ان لا تكون قد احبتني ؟ . . . ألم تكن تقف وراء هذا الكرسي ؟ ألم تكن تضع شفاهها على جبيني وتلف ذراعيها حول عنقي ؟ . . . ألم تكن سعيدة ؟ . . . ولكن من يكون اذن هذا الشاب الاشقر الجميل ؟ . . . ولماذا بدا لي محياه غير غريب عني ؟ . . . انهُ ليخيل إليَّ الآن اني شاهدته مراراً في المسارح وفي المقاهي ، جالساً تجاهنا وعيونه ممدودة الى امرأتي ، لا تكاد تحيد عنها ! . . . ألم يكن هو الذي وقف ذات يوم عند مرور سيارتنا ، وتبعنا زمناً طويلاً بنظراته ؟ من هو ؟ من ؟ من ؟ أيكون عاشقاً افلاطونيًّا ؟ لم تعرفهُ ؟ ولم تتجه انظارها اليه قط ؟ . . . ولم يكن الامر كذلك لعرفتهُ أنا أيضاً ، إذ كان لا بدَّ لهُ أن يبحث عن وسائل ليرانا في المجتمعات وليتحدث الينا . . . ولكن كلاّ ! . . . ربما كان يحذرني . . . انهُ تعرَّف على امرأتي ولم يتعرَّف عليَّ ، فتبعها في الشارع وتجرأ على توقيفها . . . كلاّ . . . لو كان شيء من ذلك لأعلمتني به . . . ولكن هل كانت تعلمني به ؟ واذا كانت تحبهُ ؟ . . . ولكنها كانت تحبني ! . . . كانت تحبني ؟ من أين لي هذه الثقة ؟ ألأنها كانت تقول لي ذلك ؟ جميع النساء يقلنَ ذلك ! . . . والخائنات يسرفنَ فيه أكثر من الطاهرات . . . أوه ! سأجده وسأسأله ! . . . وهبه ، على فرض أنه أحبّهُ ، بماذا يجيبني ؟ . . . أزور ضريحها لاني كنت أحبها ، ولكنها لم تعرف ذلك قط ! . . . هل استطيع ان اضطره الى قول الحقيقة ؟ . . . ما العمل ؟ . . . هل أستطيع ان استمر احيا هكذا ؟ ؟ ؟

* * *

ثلاثة ايام لم اشاهده خلالها ، كنت اذهب كل يوم ، ولكنهُ لم يعد ثانية . . . الحفارون يجهلون اسمه ! ربما كان قد سافر . . . ولكنهُ سيعود ! . . . سيعود ؟ واذا كان قد توفي ؟ . . . اذا كان قد توفي لانهُ لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟ آه ! ان المسألة تبعث على الضحك : أيكون هنالك رجل آخر لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟

لن تكون لي سوى رغبة واحدة ، وهي ان أقول له : «سيدي المحترم . لا تذهب في تفجعك عليها الى هذا الحد ، اذ من المحقق انها احبتني انا ايضاً » اريد ان اجعله غيوراً ... قذفت رسمها تحت منضدتي ، هوذا في وسط الغرفة ، على الارض بين رسائلها ، بين رسائلها التي كانت تحفظها في خزائنها وأدراجها ، فتحتها كلها ونبشت فيها ... ماذا وجدت ؟ ... رسائل كنت ارسلتها اليها ازهاراً كنت اعطيتها اياها ، وشرائط حريرية ؛ وتذكارات ... وربما كانت بين كل ذلك زهرة مقدمة من قبله ... كيف اعرف ذلك؟ وماذا كنت ابغي العثور عليه ؟ او هل تحتفظ المرأة بشيء يمكن ان يخونها ذات يوم ؟ افرغت جيوبها ، وقلبت أثوابها ، باحثاً عن ورقة ، ورقة غرامية ، تكون قد نسيتها سهواً ... لكنها لم تنس شيئاً !!!

لم اعد بعد ذلك الى المقبرة ، اني ارتجف لمجرد التفكير برؤية ذلك الضريح ! احيا الآن ساعات اخف من قبل ، لان الايام الاولى قد عبرت دون ان يصاب عقلي بخلل ، وعليّ ان اقنع بعدم معرفة الحقيقة ابداً ... كم احسد الرجال الذين يعرفون ان نساءهم تخونهم ، اذ انهم متأكدون من مصيبتهم ! وكم احسد اولئك الذين اذا امضهم الشك فاستطاعوا ان يراقبوا نساءهم ، على امل ان يخونهن كلمة ، او نظرة ، او حركة !!! اما انا فقد قضي عليّ الهلاك ! لان الضريح اخرس لا يجيب ! ويتفق لي احياناً ان انتفض في الليل مذعوراً من كابوس مخافة ان اكون قد دنست ذكرى امرأة طاهرة !!! آه ! لو استطيع ان احب ذكرى تلك المرأة التي منحتني ذلك المقدار العظيم من السعادة !!! لو استطيع ان ابغض تلك المرأة التي خانتني وعبثت بكرامتي ؟...

اعدت رسمها الى منضدتي ... لمته من الارض وأعدته الى مكانه ... لماذا لا استطيع ان اعبدها ؟ و... ان اجثو امام رسمها كما اجثو امام رسم قديسة وأبكي؟ لماذا لا استطيع ان احتقرها؟... ان امزق هذا الرسم وان ادوسه بأقدامي؟؟؟

° طية لبانو كثيرة ... بكاملها ... ليت نظري عالقاً بهاتين العينين ، الصامتتين ، الباسمتين ، الخاطئتين بالالغاز !!!

ابراهيم شموش
استاذ اللغة والآداب العربية
في الجامعة العبرية بالقدس